

الفصل السادس

بَشْرُ صَاحِبِكَ بَغْلَامٍ





إذا اجتمعت هذه الفطرة السوية القوية، وهذا الإيمان الوثيق بالله وهذه الأمانة الكاملة في تحمل مسئوليات الوجود والحياة، مع نكاه ثاقب رَحْب، فماذا يبقى من المَكْرَمَات والعِظَام، حتى يكون الكمال الإنساني قد تجسّد بشراً، ونهض على ساقين؟؟!!

هذا العدل، وهذا الورع، وهذا التفانى فى الواجب، وهذه الاستقامة على صراط الحق، والفطنة التى لا يخدعها خِب..

تلك الخصائص المثلى لم يأخذ «عمر» منها حظاً مجرد حظ، بل بلغ نهاياتها، وتفوق على مستوياتها القياسية جميعاً..

أجل، إن الكمال الإنساني حين أراد أن يحقق وجوده المادى المحسوس، تجسد فى نماذج نادرة وباهرة من البَشَر. وإن أحد هذه النماذج العليا، لهو «عمر بن الخطاب»...

رجل كما رأينا، عظيم. تتمنى العظمة نفسُها أن تكون إحدى صفاته وسماته!!.

على أن الصورة التي نتملأها له عبّر هذه الصفحات لم تستكمل
بعد ملامحها، فلا يزال هناك مَلَمَحٌ باهر مشرق أخاذ..
صحيح أنه مائل في كل الملامح السالفة، ولكنه بالنسبة إلينا،
نحن الذين نقسم الموضوع لنحسن فهمه ولنطبق استشراف هذه
العظمة السامقة رويدًا. لا يزال أمامنا هذا الملمح المِطْلُ، يجذبنا
ويدعونا..

فالرجل الذي ورّثه الله ملك كسرى وقيصر، والرجل الذي كان
أصحابه يرقبون ابتساماته ترقّب الأهلّة من طول كظمه شفّيته خوفًا
من الله ووقارًا له، وفرقًا من مسؤولياته أن يزلّ فيها، أو ينوء بها..
الرجل الذي خلق ليقود عالمًا، والذي رُزق طبيعة تقتلها
الراحة، ويغريها العمل بالعمل..

هذا الرجل الشاهق، الهادر، الجياش، كيف كان نهج حياته
تحت وطأة مسؤولياته، وإخباته، وجيشان فطرته وطاقاته؟
هل عقّده خصائصه هذه، أم زادته وضوحًا؟
هل اضطرته إلى الانطواء والتزمّت، أم مكنته من المجاوزة
ومنحته التفتح؟؟

هناك قدر من التحفظ، والصّلف، تحمي به الزعامة المنتصرة
نفسها، وتصون بها هيبتها، فهل أخذ «عمر» حظه المألوف من
هذا، أم كان عنده بديل آخر دعم زعامته، وإمامته، وهيئته؟؟

أجل ، كان هناك بديل يليق «بعمر» ، ولا يقدر عليه إلا واحد من طراز «عمر»..

كان هناك البساطة !!

ولكننا نظلم البساطة عند «عمر» ، إذا قلنا إنها كانت بديلاً لشيء آخر.

فليس في أخلاق «عمر» ولا في خصائصه ما هو بديل.. إنما هي جميعاً نواتٍ أصالةٍ مطلقة. و «عمر» نفسه ، هو وطنها وجوهرها... أجل ، إن الشجاعة ، وإن العدل ، وإن الورع ، والاستقامة ، كلها أخلاق إنسانية يحمل أمانتها بنو الإنسان ، وتوجد بنسب متفاوتة مع الناس جميعاً - ولكن شجاعة «عمر» ، وعدله ، وورعه ، واستقامته ، شيء نابع من «عمر» ، ومختص به.. وما كان سيوجد قط ، لو لم يوجد «عمر» !!

لقد أدت خصائص «عمر» بمعاونته دورها الفريد القُدَّ الذي جعلها متميزة كأنها من جوهر آخر فريد. هو «عمر» نفسه..

وهذه عظمة الرجل.. إنه لم يأخذ من الفضيلة سيماءها وطابعها ، بل هو الذي منح الفضيلة طابعه وسيماءه !!..

من أجل هذا ازدهرت الفضائل في نفسه وسلوكه ، ازدهار شخصيته..

واكتملت لديه الفضائل جميعاً واتحدت في كل واحد ، هو

«عمر»..

وإذا كنا نُجَزِّئُهَا ونقول، عدل «عمر»، ورع «عمر»، أمانة «عمر»، فطنة «عمر»، قوة «عمر».. فإنما نفعل هذا لنعلم أنفسنا..
أجل، إننا نُقسِّمُ طريقنا لنقدر على استيعابه، ونقسم المادة التي بين أيدينا لنتمكن من تحصيلها..
أما فضائل أمير المؤمنين، فلا تتجزأ في مجال العمل، كما لا تتجزأ في ميزان التقييم.. ذلك لأنها ليست أوسمة منوطة بصاحبها.. بل هي صاحبها نفسه، وهي الرجل الذي تنبع منه وتفتى إليه.. هي، «عمر»!!

* * *

ورجل هذا شأنه، رجل مترع بالعظمة وبالتفوق إلى هذا الحد لا يمكن أن يستهويه التمايز، ولا يمكن أن يجد راحة نفسه وغبطتها إلا في البساطة المتناهية، وفي الحياة «بين» الناس لا «فوق» الناس..

فهو يجلس حيث انتهى به المجلس. ليس له مكان صدارة يختص به نفسه. وهو ينام حيث يدركه النوم، فوق الحصير في داره، أو فوق الرمال تحت ظل النخيل!!.. وهو يأكل ما يجد، وما يُقيم الأود لا غير.. شريحة من اللحم المقدد، أو شريحة من الخبز مبللة بالزيت، مُتبَّلة بالملح!!.

وهو سعيد، حين يسمع امرأة، أو غلامًا. يناديه: يا عمر.. وهو فى سعادة لو علمها ملوك الأرض لحسدوه عليها، حين يرى عجوزًا تحمل مَكتلاً يؤودها حملها. فيتقدم منها ويحمله عنها بعض الطريق، ويضحك بلء نفسه، وهو يسمعها: تقول له شاكرة: أثنابك الله الخير يا بنى.. إنك لأحقُّ بالخلافة من عمر! !

ذات ليلة خرج فى جولة من جولاته التى كان يخرج فيها وحيدًا، والناس نيام ليطمئن على قومه ويَبْلُو أحوالهم، وينفُضُ الليل عن حاجاتهم!

وعند مَشَارَف المدينة رأى كوخًا، ينبعث منه أنين امرأة، فاقترَب يسعى، ورأى رجلا يجلس بباب الكوخ، وعلم منه أنه زوج السيدة التى تئن، وعلم أنها تعاني كَرْبِ المخاض، وليس معها أحد يُعينها؛ لأن الرجل وزوجته من البادية وقد حطَّ رحالهما هنا وحيدين، غريبين..

ورجع «عمر» إلى بيته مسرعًا، وقال لزوجته «أم كلثوم» بنت الإمام على..

– هل لك فى مَثُوبَة ساقها الله إليك؟؟

– قالت: خيرًا؟

قال: امرأة غريبة تَمَخَّض، وليس معها أحد.

قالت: نَعَمْ، إن شئت..

وقام فأعد من الزاد والماعون ما تحتاج إليه الوالدة من دقيق
وسمن، ومزق ثياب يُلفُّ فيها الوليد..

وحمل أمير المؤمنين القدرَ على كتف، والدقيق على كتف،
وقال لزوجته: اتبعيني..

ويأتيان الكوخ، وتدخله «أم كلثوم» زوج أمير المؤمنين، لتساعد
المرأة في مُخاضها..

أما أمير المؤمنين، فيجلس خارج الكوخ وينصب الأثافي ويضع
فوقها القدر، ويوقد تحتها النار. ويُنضج للوالدة طعامًا، والزوج
يَرمُقه شاكرًا... ولعلَّه كان يحدث نفسه هو الآخر بأن هذا العربي
الطيب أولى بالخلافة من «عمر»!!

وفجأة صدح في الكوخ صراخ الوليد.. لقد وضعت أمه بسلام،
وإذا صوت «أم كلثوم» ينطلق من داخل الكوخ عاليًا:

- يا أمير المؤمنين، بَشَّر صاحبك بغلام!!

ويفهم الأعرابي من الدهش، ويستأخر بعيدًا على استحياء،
ويحاول أن ينطق الكلمتين - أمير المؤمنين - ولكن شفقتيه لا
تقويان على الحركة من فرط ما أفاءته المفاجأة من سعادة، وطرافة،
وذهول!!

ويلحظ «عمر» كل هذا، فيشير للرجل: أن ابق مكانك، لا تُرْع..
ويحمل أمير المؤمنين القدر. ويقترب من باب الكوخ منادياً
زوجته..

- خذى القدر يا «أم كلثوم»، وأطعمى الأم وأشبعيها..
وتُطعمها «أم كلثوم» حتى تشبع، وترد القدر إلى «عمر» بما بقى
من طعام، فيضعها «عمر» بين يدي الأعرابي، ويقول له:
- كل واشبع، فإنك قد سهرت طويلاً، وعانيت كثيراً... ثم
ينصرف هو وزوجته، بعد أن يقول للرجل:

- «إذا كان صباح الغد فائتني بالمدينة، لأمر لك من بيت المال
بما يصلحك، ولنفرض للوليد حقه»!!
رضى الله عن «عمر»، وإنه لَحَقُّ، ما قاله الرسول عنه: «لم أرَ
عبقرياً يَفْرِى فَرِيَه»، فهو بألمعيته وبصيرته. قد عرف حقيقة
السعادة، وحقيقة العظمة في دنيانا هذه، فأخذ منهما بالمكيات
الأوفى.

ألا وَرَبَّ «عمر». إن مشهداً واحداً كهذا الذي رأيناه لخير مما
طلعت عليه الشمس وغربت - من عُروش وتيجان، وزُخرف
وصلف!!

أى تواضع وأية بساطة، وأى حنان ومودة تناسب من نفس هذا
الإنسان الذى رفع الله به من قَدَر الحياة؟!

أين مظاهر السلطان، حتى المشروع والضروري منها؟! لكن «عمر» لم يكن رجلَ سلطان، لأنه فوق السلطان. وهو لا يستعير عظمته من شيء خارج نفسه. إنما يهبُ العظمة لكل ما يقترب منه ويتصل به.

وهو لا يتكلف البساطة، بل يتنفسها.. ويُوْطئُ أكنافه في غبطة للكبير والصغير!!

يمر يوماً في المدينة بغلمان يلتقطون البلح من أفنية النخل، فلا يكاد الغلمان يبصرونه حتى ينفرقوا، ويذهبوا بعيداً، غير غلام واحد ظل في مكانه لا يريم..

ويقترب منه «عمر»، فيبأكره الغلام القول:

– «يا أمير المؤمنين، إن هذا البلح مما ألقته الريح!!» فيقول له عمر: «أرني أنظرُ إليه. فإن ما تلقيه الريح لا يخفى عليّ» وينظر البلح ويفحصه ثم يقول للغلام: صدقت..

وتتهلل أسارير الطفل، ويقول لأmir المؤمنين في براءة: – «أترى هؤلاء الغلمان الذين هناك؟؟ إنهم ينتظرون أن أذهب وحدي فيغيروا عليّ ويأخذوا ما معي»..

ويضحك «عمر»، ويربّتُ على كتفه، ويقول للغلام: امضى معي، وسأبلغك مأمّنك.. ويأخذ بيده ويسير إلى جانبه حتى يُشارف داره!!

أكانت بساطته تنبع من مسئوليته، أم نبعت كل خصائصه
المتفوقة من عظمة نفسه؟؟

ألا مَنْ شاء أن يرى ما يَسُرُّ الأعين، ويجعل الأفتدة في عيد..
ألا مَنْ شاء أن يرى العظمة الإنسانية في أوج صدقها ونهاها..
فليبصر ذلك الإنسان الفارع الطول، الأصلع الرأس. المنفرج
القدمين، اللابس برودة بها إحدى وعشرون رقعة، والحامل في
يُسراه دواة، وفي يمينه قرطاسًا وقلماً.. يقرع أبواب الدور، ويطلب
إلى نساء المؤمنين اللواتي غاب أزواجهن في الثغور وفي ميادين
الجهاد أن يجلسن وراء الأبواب: ويُمَلِّين عليه رسائلهن إلى
الأزواج، فإن البريد على وَشْكٍ أن يرحل ويسافر!!

أو فليبصر ذلك الإنسان نفسه، أمير المؤمنين «عمر»، والظافر
بالدنيا العريضة - دنيا الروم وفارس، يقرع الأبواب نفسها،
وينادى الزوجات اللاتي غاب أزواجهن:

- «اذكرن لي حاجاتكن، ومن كانت لها في السوق حاجة،
فلتذكرها لي، أو لترسل معي خادمها إن كان لها خادم، فإنني
أخاف أن تُخدعن في البيع والشراء»!!

ثم يمضى إلى السوق ووراءه يَرْبُ طويل من الخدم، وهناك
يشترى بنفسه، ويضع الحاجات في السلال بيده!!

أصحيح أن هذا الرجل عاش على ظهر الأرض يوماً، وكان أميراً
للمؤمنين، وكان يحيا بهذه البساطة، وتعدل هذا العدل، ويُخْبِتُ
ذلك الإخبات؟؟!!

أصحیح أن رجلاً، اسمه «عمر»، كان للمسلمین خليفة وإماماً،
وفتح الله له فتحاً مبيناً، هابته ملوك الأرض، وتدحرج عند قدميه
طُغاتها وجرت بين يديه كالأنهار، الأموال والكنوز - يزوره وفد
العراق يوماً ومعه الأحنف بن قيس، فيفاجأون به والحر شديد،
والصيف قانظ، منهمكاً في تطبيب بعير من إبل الصدقة يطلّيه
بالقطران - ثم لا يكاد يرى ضيوفه، وفيهم الأحنف حتى يناديه:
- «ضع ثيابك يا أحنف، وهلمّ فأعن أمير المؤمنين على هذا
البعير فإنه من إبل الصدقة، وفيه حق للأمة، والمسكين، واليتيم»..
فيقول له رجل من الوفد، وقد أذهلته المفاجأة:

- «يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، إن عبداً من عبيد الصدقة
يكفيك هذا»..

فيجيبه عمر: «وأى عبدٍ أعبدُ مني ومن الأحنف؟..» ثم يستأنف

تطيبه للبعير!!

أصحیح هذا؟؟

من حسن حظ البشرية أنه صحيح، وأن لها من «عمر» مَعِيناً لا
يَنْضُبُ من الغبطة والعظمة والأمل..

من حسن حظ البشرية، أن «عمر» واحد منها، لتعلم أنها تنطوي
على إمكانات الكمال الذي تصبو إليه وتريده، وأنه ليس عليها

إلا أن تجلسوا مواهبها، وتصقل مزاياها ومزاياها، فإذا هي تخرج
الخبء، وتعطي الثمر، وتنجب العظمة والكمال!! .

إن بساطة عمر تكشف الحماسة الكبرى التي يخوض فيها كل
من يأخذ الزهو والصلف بمنصب يناله، أو نصر يبلغه، أو ثروة
يجمعها. فما الصلف والتكلف إلا عبء ثقيل يحمله المخدوعون
به، ويصطلون بعذابه وهم لا يشعرون..

أما البساطة الصادقة التي عاشها «عمر»، فتلك هي السعادة حقاً،
السعادة التي يتمثل فيها رجوع النفس إلى جوهرها، وتفوقها على
كل خلافة وغرور...

سبحانه، ربُّ «عمر»!! .

لقد ألهمه رشه، ووقاه شرَّ نفسه. ومنحه من استقامة الشخصية
وجلالها ما جعله نسيج وحده، لا في بلده وحده، ولا في عصره
وحده، بل ملء كل مكان، وعبر الزمان، جميع الزمان!!

حيثما نلقاه، نلقى بطولة روحه، نلقى بساطته وإخلاصه
وصدقه. حتى ليتركنا في حيرة، كيف توفر لهذا الرجل، كل هذا
القدر من الدعة، والأمانة، والبساطة، وهو الذي زادت أعداد الجند
في جيوشه على مئات الألوف، وأصبحت الأموال تتكدس بين يديه
في أفناء المدينة أكواماً وتلالاً. وأخذت الوفود من أرجاء الأرض

القريبة والبعيدة، تسعى إليه طالبةً الأُمن، وأحاطت به قلوب الشعوب التي حررها من ظلم الروم، وغطرسة الفرس.. وأحاطت به فى هُيام وحب وفتون يسلب الحليم لَبَّه!! .

كل قوى الإغراء بالزهو، والحض على الاستعلاء. ثم لا نجد أثاراً - أدنى أثاراً - من زهو أو استعلاء. بل على العكس نجد قِمَمًا تَزَحَّمُ الأفق.. قمة الزهد، وقمة العدل، وقمة الورع، وقمة البساطة والتواضع.. شوامخ يعلى الرجل بناءها بفضائل نفسه، وبطولة روحه، واستقامة نهجه!!

انظروا...

ها هو ذا يقترب من مشارف الشام، وقد خرج أهلها لاستقباله، فيلقاهم رجل قد امتطى جملاً يجلس فوق وطاء من صوف خشن، وقد دلى رجلاه من شعبتى رَحله، فلا وجاف، ولا ركاب، يلبس قميصاً من قطن، كثير الثقوب، كثير الرقاع!!

ويقبل الناس على الرجل يسألونه: أين أمير المؤمنين؟؟

- ألم تلق موكبه فى الطريق؟؟

فيجيبهم الرجل باسمًا «أمير المؤمنين أمامكم» فيغدّون السير إلى أمام.. حتى يأتيتهم الخبر من ورائهم بعد حين: أن أمير المؤمنين قد وصل «أيلة» ونزل بها، فيعودون مهرولين..

ويدخلون على أمير المؤمنين حيث كان يجلس مع الناس وتكاد تصعقهم المفاجأة، فما أمير المؤمنين إلا الرجل الذى لقيهم يمتطى جملاً والذى سألوه عن أمير المؤمنين، فقال إنه أمامكم!!

ويؤتى له ببرذون مُطَهَّم عليه سرج جميل، ورَحْل أنيق، فيرفض ركوبه ويقول: نَحُوا عنى هذا الشيطان!!

فإنذا قيل له: إن هذه بلاد لا تصلح بها الإبل، يركب البرذون ولكن بعد أن يجرده من كل حلية وزُخرف. وبعد أن يُلقى عن ظهره بالسرج الأنيق، والرحل المزركش، ويضع مكانهما، الكساء من الصوف الذى كان يتخذه وطاء له إذا ركب، ووسادة ينام عليها إذا نزل!!

وفى رحلته الأولى إلى بلاد الشام يلقاه على أبواب مدينة القدس قواد جيشه وأمرأؤه، ممتطين صهوات الخيل، وقد تمنطقوا بحل من الديباج..

فلا يكاد «عمر» يرى المشهد، حتى ينزل من فوق دابته سريعاً، ويده على الأرض تأخذ من طوبها وحصاها، ويرى الأمراء والقواد ثم يقبل عليهم قائلاً:

«سرعان ما فُتنتم؟ أفى هذا الزى تستقبلون عمر...؟ سرعان ما نَدَّت بكم البطنة والترف، وأنتم الذين لم تشبعوا إلا من عامين!!» هذا رجل لم تكن البساطة، والتواضع، هواية له، بل كانت ديناً، وفطرة، وأمانة..

إنه يلتقى ذات ليلة بسيدة تسير وحدها فى المدينة. حاملة قربة كبيرة فيقترب منها ويسألها عن أمرها، فيعلم أنها ذات عيال، وليس لها خادم، وأنها تنتظر حين يرخى الليل أستاره،

فتخرج لتملأ قربتها ماء. فيأخذ منها القربة ويحملها عنها، وهي لا تعرف من هو..؟ حتى إذا بلغ دارها، قال وهو يناولها قربة الماء:

– «إذا أصبح صباح غد؛ فاقصدي عمر، يرتب لك خادمًا، قالت: إن عمر كثير شغله، وأين أجده؟»

قال: اغدي عليه، وستجدينه إن شاء الله تعالى..
وتعمل المرأة بمشورة الرجل الطيب، لكنها لا تكاد تذهب إلى عمر، وتقف بين يديه حتى تصيح مبهورة: أنت هو إن؟!
ويضحك أمير المؤمنين. ثم يأمر لها بخادم ونفقة..

* * *

لا ريب أن أمير المؤمنين لو خير بين هذه البساطة الصادقة، وكل ما في الدنيا من زينة وزخرف، لما آثر على نعمة التواضع والبساطة شيئاً..

وإن الرجل الذي عاش حياته متفوقاً، وكانت أيامه فوق الأرض موكباً مستمراً من الانتصارات والسعادة – منذ كان فتى يصارع الفتيان في سوق عكاظ، فيظفر بهم وينتصر عليهم..

إلى أن أسلم. فكان إسلامه فتحاً.. ثم هاجر، فكانت هجرته نصراً.. إلى أن صار أميراً للمؤمنين تتهاوى تحت ضرباته أركان العالم القديم كله!!

هذا الرجل، صاحب هذه الحياة الحافلة دوماً، الظافرة أبدأ..
كان أروع انتصاراته وأبهاها وأبقاها، هذا السورع الذكى الجليل
الذى أعطى دنيا الناس كافة، ودنيا الحكام خاصة، قدوة لا تبلى،
ولا هى يوماً بنا صِلَة!!

قدوة تتمثل فى عاهل بركت الدنيا على عتبه داره مُثقلَة بالمغانم
والطيبات، فسرحها سراحاً جميلاً، وساقها إلى الناس. ينثر فيهم
طيباتها ويدراً عنهم مُضلاًتها.. حتى إذا نفى يديه من علائق هذا
المتاع، استأنف سيره ومسراه، مُهرولاً فى فترة الظهيرة وراء بعير
من أموال الأمة يخشى عليه الضياع.. أو مُنحنيًا فوق قدر ينضج فيه
طعمة طيبة لامرأة غريبة أدركها كرب المخاض.. أو مستقبلاً فوق
الرمال وتحت ظل النخيل، وفداً من وفود الدنيا التى تقصد المدينة
تباعاً، باحثة لأممها ودولها عن مكان فى العالم الجديد الذى ينسفه
«عمر» ويبنيه.. أو صاعداً المنبر يخطب المسلمين ويذكرهم بأيام الله
فى بردة تزدان بإحدى وعشرين رقعة أو تزيد!!

وبعد:

أبقى شىء يقال؟..

أستغفر الله.. بل هل قلنا شيئاً من الكثير، الكثير، الذى يمكن

أن يقال؟؟

ألاً حَسَبْنَا تلك اللحظات اليانعة الممتلئة التى عشناها معه...

ولنقنع قبل أن تتقطع منا الأنفاس، بتلك الخطى المحبورة التي
تابَعْنَا بها - قليلا من الوقت - رجُلا يسابق الزمان!! .

وإذا أردنا أن نُعبِّر عن انبهارنا البالغ أشدّه، فلنوفر على أنفسنا
عناء مالا يُطمع فيه ولا يُقدَّر عليه، ولتَسَعْنَا في هذا الموطن كلمة

عبد الله بن مسعود:

- لله دَرُّ ابن الخطاب.. أئى امرئى كان؟؟!! ..



المراجع التاريخية

- الكامل: للعلامة ابن الأثير.
- الطبقات الكبرى: ابن سعد.
- أخبار عمر: للأستاذين [على الطنطاوى / ناجى الطنطاوى].